المحاضرة الأولى : ماهية الحضارة و تعاقبها

يعرف علماء التاريخ والأنثروبولوجيا الحضارة بأنها النظام الاجتماعي الذي يخرج الإنتاج الثقافي للإنسان، وتتكون الحضارة من مجموعة عناصر هي الموارد الطبيعية والاقتصادية، والنظم السياسية والاجتماعية، والعلوم والفنون التي تتولد من الحياة في ظل تلك العناصر، ومن شروط قيام الحضارة عدم وجود اضطرابات وشيوع الأمن للإنسان حتى يتفرغ للإبداع. إن مفهوم الحضارة مثير للجدل ونسبي في العديد من الحالات، حيث إن تعريف الحضارة بأنها الإرث الفني والمعماري والنهضة العلمية ينفي عن العديد من الشعوب صفة التحضر، لذا يذهب البعض إلى اعتبار الحضارة نمط المعيشة السائد في المجتمع بمفهومه الشامل، فيضم العادات والتقاليد والملابس والدين والقيم المصاحبة له ومقدرة الإنسان على التغلب على العوامل الطبيعية.

ويذهب بعض الباحثين أمثال بدوي –من الجهة الاصطلاحية- أنه ليس ثمة فارق بين تعريفي الثقافة والحضارة من الوجهة الأنثروبولوجية المُطْلَقة. غير أن البعض يرى الحضارة ثقافة معممة، امتدت خارج خصوصيتها المجتمعية المحددة، وأخذت تتسيّد وتفرض نفسها بالمعنى الشامل في عصر أو مرحلة تاريخية معينة، ويُلاحظ هُنا أن هذه الرؤية تفترض عدة مستويات ثقافية في أي جماعة إنسانية، تكون حضارة الجماعة هي المستوى الأقوى من هذه المستويات جميعا نضرب على ذلك مثالا لما يحدث في سهل البُنْجاب بالهند أين تعيش طائفة كبيرة من الثقافات المختلفة باختلاف الطبيعة الدينية والعرقية في إطارٍ واحد، والحقيقة أن نموذج سهل البنجاب هذا يعد أحد النماذج المشهورة على ما يسمى بتعايش الحضارات، ومع ذلك فإن الواقع الذي يُختَلَف حوله هو أن هذه الثقافات المختلفة تعيش جميعا في إطار حضارة واحدة هي الحضارة الهندية، وهكذا تمارس الفن والصناعة والديمقراطية دون تمايُزٍ بين عناصرها.

وبِناءً على ذلك فإن الحضارة يمكن أن تعد وعاءَ ثقافاتٍ أكثر من كونها ثقافة عامة قاهرة في مقابل ثقافات أخرى مقهورة وجزئية، وتقترب هذه النتيجة مما وصل إليه المفكر الألماني ألبرت اشفيتسر في كتابه "فلسفة الحضارة"، إذ يرى أن الحضارة هي "بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنساني وتحقيق التقدم .." ، وفكرة تكميل النوع الإنساني تلك هي ما يتخذ للإشارة إلى أن الحضارة "وعاء ثقافات".

أما النظرية القائلة بتسيد ثقافة على الأخريات لتصبح هي الحضارة في أي أمة من الأمم، فإنها تنتهي أخيرا إلى أن الحضارات العالمية كذلك تتصارع. وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة لعولمة العالم وفرض الحضارة الواحدة عليه، فإن مسألة التباين الحضاري قائمة إلى يومنا هذا.

أما تعريف عبد الرحمن بن خلدون: يرى أن "الحضارة نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير". فالحضارة بالمعنى الخلدوني مرافقة للمدنية، حيث إنها تعني درجة عالية من التقدم، التي تبلغه الأمم التي تنتقل من مستوى الفساد إلى مستوى اللاتعقل مارة بشيء من الرفه لتكمل دورة حضارية ثم تعود من جديد إلى حالتها الأولى التي كانت عليها.

وهي ايضا:"أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه المادي..."

تطورت فلسفة التاريخ عند المسلمين انتقل مفهوم الحضارة من التفسير البطولي إلى التفسير العلمي. وما يظهر من القول السابق هو ان الحضارة في نظر ابن خلدون مرحلة من الرقي تمنح الإنسان تفكيرا مبدعا، يتجرأ من خلاله على الإنجازات الخالدة،كالعمران وحسن التصرف ثم يتدرج منحدرا إلى اللاحضارة متى يحين موعد السقوط والتولي والانحطاط. فالحضارة دورة مكتملة تبدأ من النهوض

والتعقل، فالإبداع والازدهار والتشبع والاستقرار والرفه، ثم تخلد إلى معطيات الفناء والنكوس من ترف

وفساد واستبداد، ومنه إلى الاضمحلال والزوال.

يعد ابن خلدون من المفكرين القدامى الذين أناروا الفكر الإنساني بعمق نظرتهم وموسوعيتهم. فهو واحد من الذين استخدموا التحليل العقلي في دراسة الحضارة ومقوماتها.إذ يظهر لنا ذلك من خلال توظيفه للمذهب العقلي في طرح أفكاره، حين أكد على ضرورة المزج بين المجالين العقلي والنقلي "الاعتراف بالقوانين الإلهية والطبيعية" والعمل على التخمين البشري في مواجهة الأزمات وتحدي المشكلات. ويمكننا توضيح الفكرة بالمثال التالي:

التعرض لظروف طبيعية معينة،كالجفاف أوالزلازل ينتج عنه صعوبة تحقق عملية الزراعة،والاكتفاء الذاتي في الغذاء. والنتيجة الحاجة إلى الاستعانة بحلول عقلية بشرية"بناء السدود، الادخار، الاستيراد بالاعتماد على الأمم الأخرى ضعفا". يظهر أن التأسيس العلمي المتنوع الروافد قد ساعده في صياغة متعددة الاتجاهات. فهوإذ يقدم المفهوم بدلالته الاصطلاحية يعطي وجهة نظر المؤرخ والاقتصادي وعالم الاجتماع.

ومنه الحضارة في التفكير الخلدوني مجموع العوامل المحققة للاستقرار بأنواعه/المزج بين القوانين الالهية والعقلية مزجا ايجابيا/الوصول إلى مستوى الاستفحال متمثلا في قدرة الأمة على مواجهةالأزمات/لمسات من الإبداع البشري كالعمران/ قضا عمر من العطاء والتميز والارتقاء ثم التحول إلى مستوى أدنى بعد إتمام دورة مكتملة/تغيير مستمر لظروف الحياة في الميادين المختلفة.

أما الحضارة في فكر مالك بن نبي: قدم المفكر والفيلسوف الجزائري مالك بن نبي تعاريف شتى للحضارة من مستويات مختلفة. ويمكننا الوقوف على بعضها فيما يلي:التعريف التحليلي:

يركز فيه على بنية الحضارة وعناصرها، وما تبنى منه"بنائي". جاء التعريف في صيغة معادلة رياضية مفادها أن الحضارة = إنسان +تراب+ وقت. وكل عنصر من هذه العناصر يمثل أحد أطرافها.

وهو-في حد ذاته- مشكلة من مشكلات الحضارة ينبغي حلها وتحليلها، وأن هذه العناصر لا تعمل منفردة، بل ينبغي أن تتعاضد وتتناسق في انسجام مستمر، وأنها تتأثر ببعضها البعض وتؤثرفي علاقاتها الكائنة والممكنة تاريخيا واجتماعيا وأخلاقيا وسياسيا....

وأن العنصر الفعال "الفاعل والمتفاعل"فيها هو الطرف الأول من المعادلة" الإنسان"وهو أساس كل تغيير في شتى المجالات التي تحقق أسباب النهضة الحضارية. إذ يستحيل الوصول إلى مصاف الأمم وإحراز التقدم على الصعيدين المادي والروحي لدى الأفراد والجماهير على حد السواء إذا لم يبد فاعلية في حركية متزنة ومستمرة.

التعريف الوظيفي:

عالج المفكر ابن نبي المفهوم من وجهة وظيفية،كشف فيها عن الأدوارالتي يقوم بها كل عنصر، وفق مجموعة من الشروط والمراتب المترابطة في مجتمع معين وفي كل طور من أطواره. وقد بين أن الحضارة من الوجهة الوظيفية إنما هي إتاحة الفرص بتقديم الضمانات جميعها للطرف المتوهج من المعادلة" الفرد". وأساس ما يذهب إليه هو الأفكار، انطلاقا من توجيه الحضارة الإنسانية من خلال عوالم ثلاثة: عالم الأفكار/عالم الأشخاص/عالم الأشياء.

ومنه يبدو مما سبق ذكره أن ابن نبي أعطى مفاهيم كثيرة للحضارة ،يمكننا الإشارة إلى ماقصرنا محاضرتنا عليه،شارحين إياه من خلال الاستنتاج التالي:

الحضارة: شروط مادية وأخلاقية/نتاج فكرة دافعة نحو التاريخ/قمة التفاعل المتحقق من مجموع العلاقات الإنسانية"الفردية- الجماعية" متمثلة في العامل الديني/نموالمجتمع في ظل انصهار قيمي للعوالم الثلاثة"ع الأفكار+ع الأشخاص+ ع الأشياء"/عناية واعية بالمراتب المسؤولة عن تماسك المجتمع.

أما فكرة الحضارة لدى آرنولد توينبي:

مثلت الحضارة اهم مجالات الدراسة التاريخية وقد جعلها محر الدراسات التاريخية في موسوعته study of history. وقد تطورت دراسة التاريخ بعد العصور الوسطى حيث اخذ اصبح له منهجه وأصوله بين فروع المعرفة الاخرى بعد ان سيطر عليه التفسير الاسطوري. وترتب على هذا ان الحضارة جزء لا يتجزا من دراسة التاريخ.

ولان التاريخ بحاجة إلى مناهج الفكر الفلسفي فقد اتسع مجال فلسفة التاريخ حتىاصبحت مصطلحا يشير الى جانبين مختلفين من جوانب دراسة التاريخ الجانب الاول يتعلق بدراسة مناهج البحث فيه من الوجهة الفلسفية وهذه الدراسة تتضمن-في جملتها-الفحص النقدي الدقيق وهو يدخل في مجال النشاط التحليلي. واما الجانب الاخر فهو النشاط التركيبي وفيه يبحث الدارس عن اشمل راي يمكن من تفسير معنى الحياة ة هدفها حيث تكتمل به نظرة شاملة الى الوجود أوصورة كاملة عن الكون والحياة.

ومن خلال ذلك نصل الى تحديد الموقع الحقيقي للحضارة وفلسفتها بين كل من التاريخ والفلسفة فهي تقع في المنتصف بينهما.

كما نجد أن توينبي يركز في دراسته للحضارة على النزعة الدينية. فهو يرد الحضارات إلى الأديان ذلك أن الامبراطوريات ليست المقياس الأمثل في تفسير الحضارات. بل هي الفكرة الدينية والتي تقوم عليها فكرة توينبي التارخية بكاملها. وإنما الحضارة تنطلق منها.وبأن المجتمعات البشرية كل متماسك حيث إن الحضارة السليمة شيء متكامل فنشاطها الإقتصادي لا ينفصل عن مقاييسها الخلفية ومقاييسها الخلقية تمنحها الرؤية الدينية شيئا من الدفء...

ومنه يبدو ان للفكرة الدينية أهميتها في تفسير توينبي للحضارة وشروط قيامها. ولا يعتد بمقياس التوسع الامبراطوري لبناء الحضارة. أي القوة والتوسع. إذ تلجا الاقلية المسيطرة إلى التوسع حينما تفقد مقومات الإبداع وذلك على خلاف الأديان وتأثيرها. إذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة ديانة عالمية. فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ. مثال ذلك الحضارة الغربية "الأوربية والأمريكية" المسيحية والحضارة الشرقية "روسيا والبلقان"/ الأرثوذكسية والحضارة الإسلامية الإسلام....

مراحل تعاقب الحضارات :

مرت الحضارة بثلاث مراحل مختلفة وهي:

الحضارات القديمة: نشأت الحضارات القديمة كنوع من الاستجابة للتحديات التي واجهت الإنسان من العوامل البيئية، فاستطاعوا عن طريق العمل إقامة المدن وأنظمة الري والزراعة، وبعد مرحلة استخدام الأحجار للدفاع

عن النفس والصيد بطرق بدائية أصبح بمقدور الإنسان تطوير الأدوات اللازمة لسد احتياجاته. نشأت حضارات العالم القديم بالقرب من مجاري الأنهار والأراضي الخصبة المجاورة لها، ومن أمثلة الحضارات القديمة، السومرية في العراق، والكنعانية في فلسطين، والفرعونية في مصر، والإغريقية في اليونان.

الحضارات المدنية: عندما بدأت الموارد تزيد عن حاجة الإنسان ازدهرت الحضارات عن طريق تخزين الغلال والثروات ونشأت فكرة التجارة، ثم شن الحروب للاستيلاء على أراضٍ جديدة وموارد أكثر، ورغم ما نتجت عن تلك الحروب من سلبيات، إلا أنها أسهمت في الانتقال الحضاري بين الشعوب، عن طريق سيادة حضارة المنتصرين وتأثرها بالحضارة التي احتلت أراضيها في ذات الوقت، مما أخرج العديد من الشعوب من مراحل بدائية إلى مراحل أكثر تطوراً بصورة تدريجية.

الحضارة الحديثة: يمكن القول بأن الحضارة الحديثة إنما تدين إلى العالم القديم بالكثير من الفضل، لأن جذور الاكتشافات والتطوير الذي قام به الإنسان وانتقال المظاهر الحضارية وتراكمها هو ما أدى إلى دخول الإنسان العصر الحديث باكتشاف قوة البخار، ثم الاتجاه إلى التصنيع. ظهرت الحضارة الحديثة في القارّة الأوروبية بعد معاناة لقرون عديدة في العصور الوسطى من الأمراض والجهل والتخلف مقارنة بجيرانها العرب والآسيويين، وأدى تكديس لثروات في الدول الأوروبية إلى ظهور الحضارة كما نعرفها اليوم وانتشارها بنفس طريقة العصور القديمة، من احتلال أراضٍ جديدة واستغلال الشعوب الأقل تمدناً، والتطور البطئ لتلك الشعوب عبر تعرفهم على مظاهر الحداثة الأوربية، وصولاً إلى اليوم في ظل حدوث ثورة حضارية جديدة في مجالات الاتصالات والنقل.